دين المتنبي

٢ ـ أبو الطيب المتنبي

للأستاذ محمد محيي الدين عبد المجيد

ومما يتصل بالكلام على دين أبي الطيب أنه لم يشرب الخمر إلا في القليل النادر ، فليس هو من المدمنين الماجنين ، ولذلك لا تجد في شعره شيئاً من المجون إلا أن يهجو فيقذع في هجائه . وما لأبي الطيب والخمر ، وهي انما يشربها النواة وذوو البطالة ، ومن لا مطمع لهم في الحياة يسعون لتحقيقه ، فأما الرجل الذي يفكر في المجد ويأمل أن يصل إلى ذروته ، فليس ممن يفكرون في الخمر . حدثوا أن صديقاً لأبي الطيب كنيته أبو ضبيس سأله يوما أن يشرب معه فأجابه بقوله :

ألذ من المدام الخندريس وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالي وإقحامي خميساً في خميس
فموتي في الوغى أربي لأني رأيت الموت في أرب النفوس
ولو أسقيتها بيدي كريم أسر به لكان أبا ضبيس

وهو ينادم اخوانه إذا شربوا الخمر ، فيشرب كأساً من الماء فقد قال له بعض بني كلاب : أشرب هذه الكأس سروراً بك ، فأجابه بقوله :

إذا ما شربت الخمر صرفاً مهنأ
شربنا الذي من مثله شرب الكرم
ألا حبذا قوم نداماهم القنا يسقونها رياً وساقيهم العزم

ومد إنسان له يده بكأس من الخمر وحلف بالطلاق ليشربنها ، فقال :

وأخ لنا بعث الطلاق ألية لأعللن بهذه الخرطوم
فجعلت ردى عرسه كفارة عن شربها وشربت غير أثيم

وهذه احدى المرات التي شرب فيها الخمر ، ولم يصب حكم الشريعة في قوله : « وشربت غير أثيم » ولكنها إحدى تظرفات الشعراء . ولعلها مع ذلك تدل على أن امتناعه عن الشرب في غير هذه المرة لمخافة الآثم

أخلاق أبي الطيب

سنتكلم في هذه العجالة على أربع خلال كان لها أثر ظاهر في حياة أبي الطيب وأخباره وشعره ، وهي : الشجاعة والكبر والبخل والغدر . فأما شجاعته فهي أظهر من أن تلتمس لها الشواهد ، فهو شجاع يحن شوقا إلى لقاء العدى ويستصغر المخاطر في هذه السبيل ، ويستهين بما يكابد فيه من أهوال ، ولقد كان مسوقا إلى اقتحام الردى تدفعه إليه نفسه التوثبة الطاعة وتغريه به آماله الجسام التي يحرص على إدراكها الحرص كله ، والتي يعتقد أن الوسيلة اليها هي التضحية وبذل النفس . وقد كانت فيه مع ذلك عجلة تشبه الرعونة نبتت فيه من تلهفه على بلوغ الغاية التي يصبو إليها حتى كان يخشى أن يعجل إليه الموت قبل بلوغها . أنظر اليه وهو يحدثك عن المجد الذي يتطلع اليه ويشير الى أن الحياة أضيق من أن تتسع لانتظاره

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

ثم انظر إليه وهو يحدثك عن مطلبه ويصف لك أن إدراكه بعيد ويحضك على ألا تبالي بما تلقاه في حياتك من الشدائد والمحن

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث مادام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن

ثم انظر إليه وهو يدلك على أن هناءة العيش وسعته وطيب الحياة وسائر ما في الدنيا من متاع أمور لا تدرك إلا بحد السيف وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي

أرتك احمرار الموت في مدرج النمل

وتراه لا يترك الحديث عن آماله وشجاعته حتى في المواقف التي لا يحسن فيها الفخر ، ولقد كان مما اشتهر به شعره أنه يتحدث عن نفسه في أثناء المديح والرثاء . استمع إليه وهو يقول لكافور :

فارم بي حيثما أردت فاني أسد القلب آدمي الرواء
وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني يرى من الشعراء

وهو مفتون بذلك منذ صباه ، ولا عجب في ذلك فان كثيراً

من الناس تولد معهم الآمال فى طراءة السن وميعة الشباب ، وعصر أبى الطيب الصاخب المليء بحوادث الانقلاب خليق بأن يثير فى نفسه لواعج الآمال ؛ قيل له وهو صبى « ما أحسن وفرتك » فأجاب :

لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يعلوها من كل واق السبال

فأما الكبر فقد كان أبو الطيب مستكبراً تياهاً صلفاً يرى أن لا أحد مثله وأن أعلم أهل زمانه قدم وأحزمهم وغد ، وأن كل ما خلق الله وما لم يخلق حقير الى جانب عظمته كشعرة فى مفرقه . ولقد كان من آثار كبره أن ترفع عن مدح الوزير المهلبى والصاحب ابن عباد ، وحدثته نفسه أن يتأبى على عضد الدولة ، ولولا أن ابن العميد زين له الذهاب إليه وأغراه بما سينا له لديه من التكرمة والمال لكان قد امتنع . ولقد جر على نفسه بهذا الترفع عداوة الوزير والصاحب وعداوة أشياعهما من الشعراء والكتاب والعلماء . فأما الوزير فقد أغرى به شعراء العراق يزدرونه وينالون من عرضه ويبالغون فى هجائه ، وأغرى به جماعة من العلماء منهم أبو الفرج صاحب كتاب الأغانى يتعقبونه ويشهرون به . وأما الصاحب فلم يسكته عنه علمه بمحاسنه وكثرة ما كان ينتفع بمعانيه ، بل أخذ يتتبع هفواته ويعد عليه سقطاته ويغرى به المترددين عليه الطامعين فى عطاياه ، وما أكثر هؤلاء !!!

ونحب أن ندل هنا على أمرين : الأول أن آثار كبر أبى الطيب وترفعه لم تظهر جلية واضحة إلا بعد أن اتصل بسيف الدولة ونبه شأنه . فأنت تراه قبل ذلك يمدح قوماً لا نباهة لهم ولا ذكر ، وتراه يمدح على أتفه العطايا ، وقد تنبه إلى ذلك أبو منصور الثعالبى فهو يقول : « وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ، ويصاد ما بين الكركى والعندليب » اهـ ، وأبو الطيب معذور فى ذلك فان سيف الدولة قد غمره بعطاياه حتى درت له أخلاف الدنيا ولقى فى جواره من الكرامة ما شجا حاسديه فكان خليقاً أن يقول فيه :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله ... وأنعمت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ... ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

الأمر الثانى : أنه قد اختلط على بعض الناس كثير من مواقف أبى الطيب فاعتبروها كبراً أو تكبراً وليست هى من الكبر فى شىء وإنما هى عزة النفس والاحتفاظ بالكرامة ، وتقدير المرء نفسه وإكرامه إياها من الكبر بالمكان النائى البعيد ؛ فليس لأحد أن يزعم أن من الكبر إنشاد أبى الطيب سيف الدولة وهو جالس واشتراطه عليه ألا يقبل الأرض بين يديه إلا أن يكون ممن تختلط الأخلاق فى أنظارهم فيرونها بغير المنظار الذى يراها به الناس ؛ وعسيت أن تسأل بعد ذلك أين ذهبت عزة نفسه حين أنشد كافور وهو واقف ؛ والجواب على ذلك أن ننبهك إلى أنه فارق سيف الدولة حانقاً متبرماً فلعل وقوفه بين يدى كافور وهو من أعداء سيف الدولة ليثير غيظه ، أو لعله أراد به مصانعة كافور لينال منه الذى وفد عليه من أجله . على أنه إن كان قد ترك معه ما جرت به عادته مع سيف الدولة فقد اتخذ لعزته لوناً آخر ، فقد كان يقف بين يديه وفى رجليه خفان وفى وسطه سيفه ومنطقته

فأما البخل فقد رماه الناس به وحكوا فى ذلك عنه أنه أحضر مالاً من صلات سيف الدولة وصب بين يديه على حصير قد افترشه ووزن وأعيد فى الكيس وإذا قطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت الحصيرة فأكب عليها ينقرها ويعالج استنقاذها ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى إذا ظهر له بعضها تمثل بقول قيس بن الخطيم :

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة ... بداحاجب منها وضنت بحاجب

ولم يزل كذلك حتى استخرجها وأبر باعادتها الى مكانها من الكيس . ومجيب أن يكون بخيلاً ذلك الذى يقول

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى صنع الفقر

ولكنهم يروون عنه أنه قال : (إنى وجدت الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار فاعتمدت أن يكون عندى مثلها . فأنا أجد فى ذلك حتى يقول الناس إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار) اهـ . وإن يكن القوم صادقين وكان لأبى الطيب عذر فى حرصه على المال وفى ضنه أن تضيع منه قطعة كأصغر ما يكون فليس هو هذا العذر الذى نسبوه اليه ، وإنما عذره أن المجد الذى كانت نفسه تحدثه به فى حاجة الى المال وهذه إشارة نجتزئ بها فى هذا الموضوع

فأما الغدر فآيته أنك تراه كل يوم بين يدى ملك أو وزير وتراه كلما وقف بين يدى واجد منهم يمدحه بأنه أكرم الناس